٤ أصوات الفقراء

بعد نشر مقالتي «لماذا نتحامل على الفقراء..؟» جاءتني رسالة استغاثة من إحدى قرى محافظة الدقهلية يصرخ فلاحوها من تجاهل مطالبهم لأكثر من عشر سنوات، حرمت فيها قرية سلسيل بمركز ميت غمر من كل مقومات الحياة الإنسانية المتمثلة في انعدام الخدمات الصحية والتعليمية والدينية فضلًا عن ندرة مياه الشرب، وناشد أهالي القرية في خطابهم رئيس الوزراء د. عصام شرف للنظر في ظروفهم الإنسانية الملحة والتي في نظري تسبق كل مطلب ونحن نساند أصواتهم وكلما شاهدت حالات الفوران الثوري التي لا تهدأ في الميادين المصرية ولمست الأوجاع الكائنة في أحداق الفقراء الآملون في الاستقرار والعيش الكريم؛ تساءلت: هل التحامل على الفقراء سمة أساسية لنظام مبارك وحده أم هي متأصلة في ثقافة الشعب المصري؟ وهل بقاء الأغنياء وسعادتهم مرهون ببؤس الفقراء وشقاؤهم؟ لقد ظل الفقراء حقبة تاريخية كاملة بمثابة آلات موسيقية ظل السياسيون يعزفون عليها وعودهم المزيفة وخططهم البالية وشعاراتهم الوهمية، ولم يكن أمام الفقراء سوى الانتظار الذي طال وطال حتى أصبح حق العيش على قيد الحياة مطلبًا أوليًّا لهم. فلم تسفر جهود نظام مبارك بكل مؤسساته في الوصول لحلول جذرية لمشكلة الفقر ومشاكل الفقراء. ولم تكشف جهودهم إلا عن واقع أليم يعيشه الفقراء ويزداد ألمًا مع مطلع كل شمس. مليارات من أموال مصر أنفقت على

خطط وهمية للبناء والتنمية وهي لم تؤدي في الواقع إلا لبناء إنجازات سياسية وهمية ومصالح شخصية مشبوهة حصدها أعضاء البرلمان والتنفيذيون ورجال السياسة. إنهم نجحوا في المتاجرة بقضايا الفقر وأحلام البؤساء.

إن نجاح برامج التنمية في عهد مبارك وحكوماته المتعاقبة كان يقاس بصحة مستنداته وقدرة القائمين على هذه المشروعات على الفبركة وتغيير الحقائق، وليس بمدى ما تقدمه هذه المشروعات من خدمات. لقد أخبرني أحد وزراء مبارك بأنه كان بصدد تنفيذ مشروعًا بتمويل أجنبي، وفي أحد اجتماعاته سأله أحد المسئولين عما إذا كان الوزير يريد نجاح المشروع أم خدمة مصر؟ فأجاب ضاحكًا: طبعًا نجاح المشروع. وكأن نجاح المشروعات في عهد مبارك لا يعني بالضرورة خدمة الوطن. إنها مسرحية في قمة الهزلية.

وهكذا ضاعت أموال الشعب في خطط تنموية وهمية بعيدة عن واقع الفقراء واحتياجاتهم الأساسية، خطط تم استيرادها من الخارج كما استوردنا علب الكبريت ودبابيس الإبرة، لقد وقف أعضاء البرلمان المصري الذين انتخبهم النظام ولم يختارهم الشغب حائلًا دون وصول الاحتياجات لصانعي القرار؛ ومن ثم فقد جاءت قراراتهم غير ملبية لمطالب الشعب. وسقط الفقراء ضحايا لحوارتهم ومؤتمراتهم العقيمة، لقد ضاعت أموال الشعب على برامج التدريب والتأهيل التي لم تسفر سوى عن إنجازات غير ملموسة؛ للدرجة التي أطلق فيها خبراء التنمية على برامج التنمية في مصر (برامج كيك وبريك).

وكانت نتيجة هذه المهازل النهضوية التي أطلقوا عليها جهودًا تنموية ريفًا معدمًا يئن كل يوم من نقص الخدمات بشتى أنواعها، من صحية وتعليمية وضمانية وخلافه. حتى وصلت معدلات التسرب والأمية أعلى درجاتها في أواخر العهد البائد، في إطار

من تقارير مبهجة للغاية تحمل في طياتها معلومات وهمية عن تقدم غير موجود في أرض الواقع.. معلومات يرفضها الواقع الأليم الذي يتكبده فقراء مصر، فلم تعترف بهذه التقارير مثلًا منظمة الصحة العالمية التي أشارت إلى أن مصر من أكثر البلدان المضيفة للكبد الوبائي سي والفشل الكلوي ومن المتوقع أن تكون الأعلى في الدول العربية من حيث انتشار الإيدز، أما عن التعليم فقد أسفرت التقارير العالمية المعنية بالتعليم عن تأخر واضح في البرامج التعليمية في مصر، فلم تحظى الجامعات المصرية بترتيب بين أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم، وتوقفت دول الخليج عن استيراد الخبرات التعليمية المصرية. والسؤال الذي يطرحه الشعب هل يحمل مشروع النهضة خططًا واضحة المعالم للنهوض بأحوالهم؟ وإلى متى يظل البرلمانيون وحاشية الرئيس في تزوير مطالب الشعب؟ وهل سوف تصبح نتائج المشروعات واقعًا يلمسه البؤساء أم مجرد أرقام وهمية على ورق؟ وعلى أية حال فما زال النيل يجري. وما زال المصريون ينتظرون الفجر، ويحلمون بالعهد الجديد. فأتمنى ألا يخيب الثوار وحكوماتهم أمالهم.

□ □ □ □